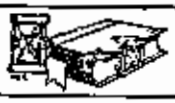

صور عبقرية للأدب العربي

مناظرة الهمذاني والخوارزمي

«اذا أرت الدنيا باهة خامل فلا ترتقب الا خمول نبيه»

—o:o—

« وأعان الهمذاني عليه قوم من الوجوه ، كانوا مستوحشين منه جداً ، فلاق ما لم يكن في حسابه» « الثعالبي »

أما أثر هذه المناظرة في الهمذاني فقد اوجزهُ الثعالبي في قوله : —

« فلما تصدى الهمذاني لساجلته ، وتعرض لتحكيك يفه ، وغلّب هذا قوم وذاك آخرون ، طار ذكر الهمذاني في الآفاق ، وارتفع مقداره عند الملوك والرؤساء ، وظهرت أمارات الاقبال على أموره ، ودرّت لهُ أخلاف الرزق ، وأجاب الخوارزمي داعي ربه ، فخلا الجو للهمذاني »

وأما أثرها في الخوارزمي فكان كما يقول الثعالبي نفسه : —

« أف من تلك الحال ، والخذل الخذالاً شديداً ، وكسف باله ، وانخفض طرفهُ ، ولم يَحُلّ عليهِ الحول حتى خانه عمره ونفذ قضاء الله فيه ! »

والحق ان هذه المناظرة كانت أشبه بمبايعة قهرية من الخوارزمي للهمذاني ، فقد انتهت المعركة بمثل ما تنتهي اليه عزيمة الملوك ، وانتقل تاج الشهرة من رأس الى رأس !

ولعل أصدق مثل ينطبق على ما حدث بين الهمذاني والخوارزمي هو مثل السلحفاة والأرنب المشهور ، حين تراهنا على السباق إلى غاية ، فتهاون الارنب اعتماداً على سرعته وجدّت السلحفاة لتعوض ما فات من قوتها

فقد كان الخوارزمي حينئذٍ شيخاً قضى عمره بين حلٍّ وترحال ، ومضى على غلوائه في الاضطراب والاغتراب — كما يقولون — وشرّق بعد ان غرّب وخبر الدهر وأهليه ، وتعرض لكيد الرؤساء وغضب الزعماء . فلما تصدى الهمذاني لمناظرته ، وهو حينئذٍ في سن الشباب — استخفّ بهِ ولم يعدّ العدة لمناضلته ، وكان مما كان يمثل قول القائل : —

« عذرت البزل إن هي غالبتني فما بالي وبال ابني لبون ! »

ولم يكن زهد الخوارزمي في مساجلته بأقل من ولوع الهمذاني بها وتحرقه اليها ، لانهُ كان يرى فيها اكبر فرصة للظهور

ألا ترى إلى الهمذاني يبدأ بالتجني على الخوارزمي وتقريعه واتهامه بالجفاء والكبر[1] فيرد عليه الخوارزمي رداً كريماً يختمهُ باظهار خطإ الهمذاني فيما ذهب اليه من توهم الجفوة[2] فلا يكون للهمذاني شاغل الا استثارة الخوارزمي وتنقصه وعيبه في كل نادٍ ومحفل ، مرتقباً الفرص لمناضلته وقهره ، ليصل بذلك الى الشهرة من أقرب طريق. فاذا بدا لهُ أمل في الاجتماع به ، حرص الهمذاني على تحجل الفرصة وسعى الى تحقيقها جاهداً خشية ان تفلت من يده . كما يتم على ذلك قوله : —

« واتفق أن السيد أبا علي نشط للجمع بيني وبينهُ ، فدعاني فأجبت ، ثم عرض عليّ حضور أبي بكر الخوارزمي فطلبت ذلك وقلت : « هذه عدة كنت أستنجزها . وفرصة لا أزال أتهزها ». فتجشم السيد أبو الحسين وكاتبه يستدعيه ، فاعتذر أبو بكر في التأخر فقلت : « لا ، ولا كرامة للدهر أن ننعد تحت حكمه أو نقبل خسف ظلمه ، ولا عزازة للوائق أن تضيعنا ولا نضيعها وتمينا ولا ندفعها ». وكاتبتهُ أنا أشحذ عزيمته على البداءة وألوي رأيه عن الاعتذار ، واعرفهُ ما في ذلك من ظنون تشتبه ، وتهم تتجه »

وهنا يقول الهمذاني :

« وقدنا اليه مركوباً لنكون قد الزمناهُ الحج وأعطيناهُ الراحلة ، فجاءنا في طيلسان أف ، وعدد ثف

« كل بيض قدره اصبع وأنفه خمسة أشبار ! » الخ

ولم يكد يستقرُّ به الجلوس حتى بدأ يستثيره الهمذاني ويتحرش به إلى ان زجَّ به في ميدان المساجلة . وانشدهُ الهمذاني ابياتاً كلها تهكم به وزراية عليه وتنقص لأدبه

وقد اجاز الخوارزمي بيتاً للتنبي كما اجازهُ الهمذاني ، وعاب عليه الهمذاني ما في نظمه من قافات مكروهة . فلما بدأ الخوارزمي يعيب عليه قوله :

« يا أحقا ! وكفاك ذلك خزية جرَّبت نار معزي هل تحرق ! »

ونعى عليه صرف كلمة « أحمق » أسطرهُ الهمذاني بسيل من السباب ، فقال :

« وأما أحمق فلا يزال يصفك لتصفه ، حتى ينصرف وتنصرف معهُ ! »

ومن العجيب أن الهمذاني يسبّه ما شاء أن يسبّهُ ، دون أن يقف في سفاهته عند حد ، ومن غير أن يراعي فضل الرجل أو شيخوخته ، ثم لا يخجل أن يقول لهُ بعد ذلك :

(١) ارجع الى (ص ١٥) من رسائل الهمذاني (٢) ارجع الى (ص ١٥) من رسائل الهمذاني

« يا هذا إن الادب غير سوء الأدب ، والمناظرة حضرتا لا المنافرة ، فإن نفضت عن هذا السخف يدك ، وثنيت عن هذا السفه قصدك ، وإلا تركت مكالمتك الخ »

فاذا انفضّ المجلس طفق الهمذاني يروّج في كل مكان انهُ انتصر على الخوارزمي أيما انتصار وخذله أيما خذلان، ويرسل اليهِ في نفس الوقت وسائل الشرق والمجاملة والتحرق الى اللقاء ، ويوفد اليهِ رسلا يصلحونهُ واياهُ :

ولكن الخوارزمي يبعث اليهِ من يقول لهُ :

« قد تواترت الأخبار ، وتظاهرت الآثار في أنك قهرت وانني قُهرت ، ولا أشك في أن هذا التواتر عنك صدرت اوائلهُ ، والخبر اذا تواتر بهِ النقل قبلهُ العقل ، ولا بدَّ أن نجتمع في مجلس بعض الرؤساء نتناظر بمشهد الخاصة والعامة الخ »

واذن فقد بلغ الهمذاني إربتهُ ، واحتاج الخوارزمي فاندفع الى طلب المناظرة بلا تدبر ولا روية فبعث اليهِ الهمذاني بكلام ظاهره اعتذار وباطنهُ احتثاث على المناظرة واستنفار اليها

***

ومرت الايام ، ثم جاء اليوم المشهود ، وعقدت المناظرة في دار الشيخ أبي القاسم المستوفي الوزير ، بمشهد من القضاة والفقهاء والاشراف وغيرهم من سائر الناس

وهنا يكر الهمذاني في الحضور ليتملق من حضر ويتودد الى الشهود بكل ما في وسعهِ ويدبر خطط الدفاع والهجوم تدبير الحاذق الذكي

قال . « وكنت أول من حضر ، وانتظرت مليًّا حضور من ينظر الخ »

فاذا رأى من بعض الحاضرين شيئاً من الانحراف عنهُ تقرب اليهِ متملقاً ، كما فعل مع الشريف السيد أبي الحسين ، حين رأى منهُ جانب الاعراض فقال لهُ من كلام طويل :

« فإن كنت أبلغت غير الواجب فلا يحملك على ترك الواجب ، ثم إن لي في أهل الرسول (ص .) قصائد سارت في البلاد ، وطارت في الآفاق ، ولكني أتسوق بها لديكم ، ولا أتنفّق بها عليكم ، وللآخرة قلتها لا للحاضرة ، وللدين ادخرتها لا للدنيا ! »

فقال للهمذاني : — « أنشدني بعضها »

فأنشدهُ الهمذاني شيئاً مما قالهُ . فاذا حدث ؟ نترك للهمذاني نفسهِ روايتهُ ، قال :

« فلما أنشدت ما أنشدت انحلت لهُ العقدة ، وصار سِلماً ، يوسنا حلماً الخ » وبذلك أصبح الشريف من أنصار الهمذاني ومؤيديهِ

وجاء الخوارزمي بعد أن تكامل العدد ، وتمت المؤامرة ، فتوبل بفتور ولم يكد يجلس

مكانهُ الجدير به حتى طلب اليهِ الهمذاني أن يتخلى عنهُ الى غيره . ووافقهُ الحاضرون على سفسطته الفارغة . ولقد اخطأ الخوارزمي أشنع الخطأ حين رضي بالبقاء والمناظرة في مجلس مشبع بروح الخصومة واللدد. وليتهُ اتبع قول ابن المقفع في وصف صديق حازم: « وكان لا يدلي بحجته حتى يجد قاضياً فهماً وشهوداً عدلاً » إذن لأمن عواقب هذا الاندفاع والتسرع . ولكن

ألا يا قوم للعجب العجيب والغفلات تعرض للأريب

***

ولكن كيف انهزم الخوارزمي في المناظرة ؟

ليس لدينا غير مصدر واحد نعتمد عليهِ في ذلك غير رواية الهمذاني نفسهِ ، وهي رواية خصم عن خصمهِ لا تقابل بغير الحذر والانتباه ، وقد تعمد الهمذاني — بلا شك — أن يسجل فيها انتصارهُ مضاعفاً ، بأسلوب جديد من أقوى أساليب الدعاية ، ولو كان لدينا مصدر آخر لتكشفت لنا جوانب كثيرة تعمد الهمذاني اخفاءها عنا ، ليزعم لنفسهِ الفوز كاملاً والانتصار حاسماً !

على أننا نلمح في كلام الهمذاني نفسهُ ، أنهُ قد انتصر على الخوارزمي انتصاراً ، الهزيمة خير منهُ ، وقد ذكرنا للقارئ طرفاً من تلك الأساليب الخبيثة التي سلكها الهمذاني للتغلب على خصمهِ « الخوارزمي » الاديب الكبير وابن اخت الطبري المؤرخ الكبير

وهي أساليب اعدها دروساً قاسية في التهافت المستكر على الشهرة وعواقبهِ، فقد رأيت أنهُ لم يدع وسيلة من وسائل التهويش وعلق الحاضرين وارضائهم إلا أتاها

فلما انتهت المناظرة وأراد تسجيل ما حدث فيها كما شاء لهُ الهوى ، طفق يكيل المدح كيلاً لكل من لهُ خطر من الحاضرين حتى يأمن أن يكذبوهُ في شيء مما رواهُ . وطفق الهمذاني وأنصاره وخصوم الخوارزمي يذيعون في كل مكان أن الخوارزمي قد انهزم شر انهزام

***

ولكن ، هل كانت الهزيمة حاسمة ؟

ذلك ما نرتاب فيهِ رغم ما يؤكدهُ لنا الهمذاني ، ويصورهُ لنا في روايته التي ليس لدينا مصدر سواها . ونحن نعتقد أن الهزيمة — إن كان ثمة هزيمة — لم تكن شريفة ، وليست تنقص من فضل الخوارزمي. فقد كانت كل كلمة يقولها الهمذاني تقابل بالاستحسان

ويعرب الحاضرون عن رضاهم عنها بالقول والاشارة وانبساط الأسارير . وقد أحسن الخوارزمي في وصف خصمه بالشعبذة فلم يمن أحد بقوله . مع انهُ وصف صادق لادب الهمذاني في ذلك الحين . فقد طلب من مناظرهِ مثلاً : ان يكتب كتاباً « خالياً من الحروف العواطل » وآخر « اوائل سطوره كلها ميم وآخرها كلها جيم » الى آخر هذه الأمور التي لا نرى أصدق في وصفها من كلة الشعبذة !

***

لقد كان الخوارزمي في سن الشيخوخة ، وقد احرز اقصى ما يتطلع اليهِ من شهرة ومجد ووصل الى ارقى منزلة تتسامى اليها نفس اديب ، وهي منزلة الزعامة ، وهو حينئذٍ قد اجتاز مرحلة الجدال والمهاترة والمباهاة بالحفظ الى آخر هذه الاشياء التي يكثر منها الأديب الناشيء الطامح الى الشهرة ، وأصبح بأقصى بطبعهِ من ذلك ، ولو حاوله — وقد فعل — لأخفق كل الاخفاق . ومثل لنفسك شابًّا ذكيًّا يواصل ليله بنهاره في الدرس والتحصيل وتطمح نفسه الى عظائم الامور ، يأتي الى زعيم من زعماء الادب في عصره فيناقشهُ في تلك القواعد التي تركها منذ زمن بعيد وانصرف عنها الى ما هو أسمى منها من الاهتمام بفلسفة الحياة ومثلها العليا ، فاذا تكون النتيجة ؟ !

فاذا سلمنا بانهزام الخوارزمي فليست هذه الهزيمة مما ينقص من مكانتهِ العالية عندنا ، فقد يكبو الجواد . وكثيراً ما صاحبَ التوفيق من ليس لهُ اهلاً ، وخذلت الظروف من هو أجدر الناس بالفوز . وربما أجلت القريحة الوقادة كما حدث للحريري في موقفه المشهور . ومن الناس من يصلح للكتابة ولا يصلح للخطابة ، ومنهم من يلائمه الجو الهادئ ويؤذيهِ الصخب . ولقد تلمّ مثلاً أبو علي القالي — الاديب الكبير — وارتج عليهِ حين اراد الترحيب برسل ملك الروم في الاندلس واظهار مجد الاسلام امامهم[1] فهل دل ذلك على شيء اكثر من ان لكل مقام ناساً لا يصلحون الاّ لهُ ، فلا بي علي القالي التفكير الهادئ والبحث الأدبي المطمئن ، وتمحيص الروايات والاسانيد ، ولغيره الثرثرة والتأثير الخطابي على نفس العامة ، وليس في استطاعة احدهما ان يقوم مقام الآخر . وللهمذاني كذلك

(١) لما أمره الناصر بالكلام حمد الله وصلى على النبي ثم ارتج عليه فقال المخفل وابهة الخلافة ، فقالوا : « وانقطع وبهت ، فما وصل الا نطع ، فوقف ساكتاً مفكراً ، فلما رأى منذر بن سعيد البلوطي ذلك قام قائماً بطرجة من مرقاة ابي علي ، ووصل افتتاحه وخطب خطبة بالغة » (ارجع الى نظرات في تاريخ الادب الاندلسي ص ٢٠٦) وقد كانت هذه الخطبة سبباً لرفع شأنه بعد ذلك كما رقمت المناظرة من شأن الهمذاني !

دولة الالفاظ يلعب بها لعب الماهر الحاذق بالتطريح ، وللخوارزمي التوفق في التعبير عما يدور بنفسه من أدق المعاني وأخفى الخوالج ، وعرضها على الناس في أجمل معرض !

***

وجماع القول أن الخوارزمي كان يمتد بنفسه اكبر امتداد ويحتقر الهمذاني ، ولا يرى فيه كفئاً جديراً بالاستعداد لمناجلته . بينما كان الهمذاني يعدُّ كل عدته في سبيل الانتصار عليه لأنه كان يرى في هذا الفوز ادراك اقصى غايات الشهرة ؛ وكان شهود المناظرة ممن يكرهون الخوارزمي ويميلون الى الزراية عليه والحط من شأنه كما قلنا . وقد بكر الهمذاني في الحضور واعد أركان الدفع ورسم الخطط الهجومية ، واستمال الحاضرين بدعابته وظرفه ومداعبه ، وهيأ لنفسه كل اسباب الانتصار وقد كان الهمذاني قوي العارضة حاضر البديهة سريع الخاطر وهذه اقوى عدة يعتدُّ بها كل من يتصدى للمناظرة والجدل

***

بقي علينا أن نقول ، انصافاً للحقيقة

اننا نتكلم الآن عن الهمذاني وهو في زمن المناظرة ايام كان يطمح الى اغتصاب الشهرة اغتصاباً من أديب عصره الفذ « ابي بكر الخوارزمي » على اننا جديرون أن نقرر أن الهمذاني قد وصل بعد ذلك حين خلا له الجو — عقب موت الخوارزمي — الى منزلة إن لم تصل الى منزلة الخوارزمي فهي ليست جد بعيدة عنها ، ولا جرم أنهُ لم يبلغ هذه المرتبة إلا بعد أن وجه همتهُ الى الادب الخالص والتعبير الصادق عن احساسه ، ولو عاش الى مثل سن الخوارزمي لما قصر عن شأوه . وربما نال معهُ أحد الناشئين نفس هذه الرواية التي نالها مع الخوارزمي — على أن كلا الاديبين — في التقصير والنبوغ على السواء متفق في العناية بالسجع والمحسنات اللفظية التي لا يرضاها عصرنا . وإن كان السجع قد أصبح لكليهما سجية ، وكان لا يجيء منهما إلا عفو الخاطر فلا تكاد تشعر بتكلف في صياغته ، لاسيما في كلام الخوارزمي المملوء حكمة وتعقلا

فإذا أمنت ناقد فعرض علينا شيئاً من سخافاتهما محاولاً اسقاط قيمتهما ، عرضنا لهُ أضعاف ذلك من حسناتهما ، وقلنا له : إن كاتباً من كان ، لا يخلو من سقط

على أنهما كانا متأثرين بعصرهما في ذلك ، وقد حملا لواء الزعامة متعاقبين وكانا قدوة للناشئين من الأدباء كما كانا محل تبجيل اساطين الادب في ذلك العصر الحافل بالادباء

القاهرة أسعد كيرلس

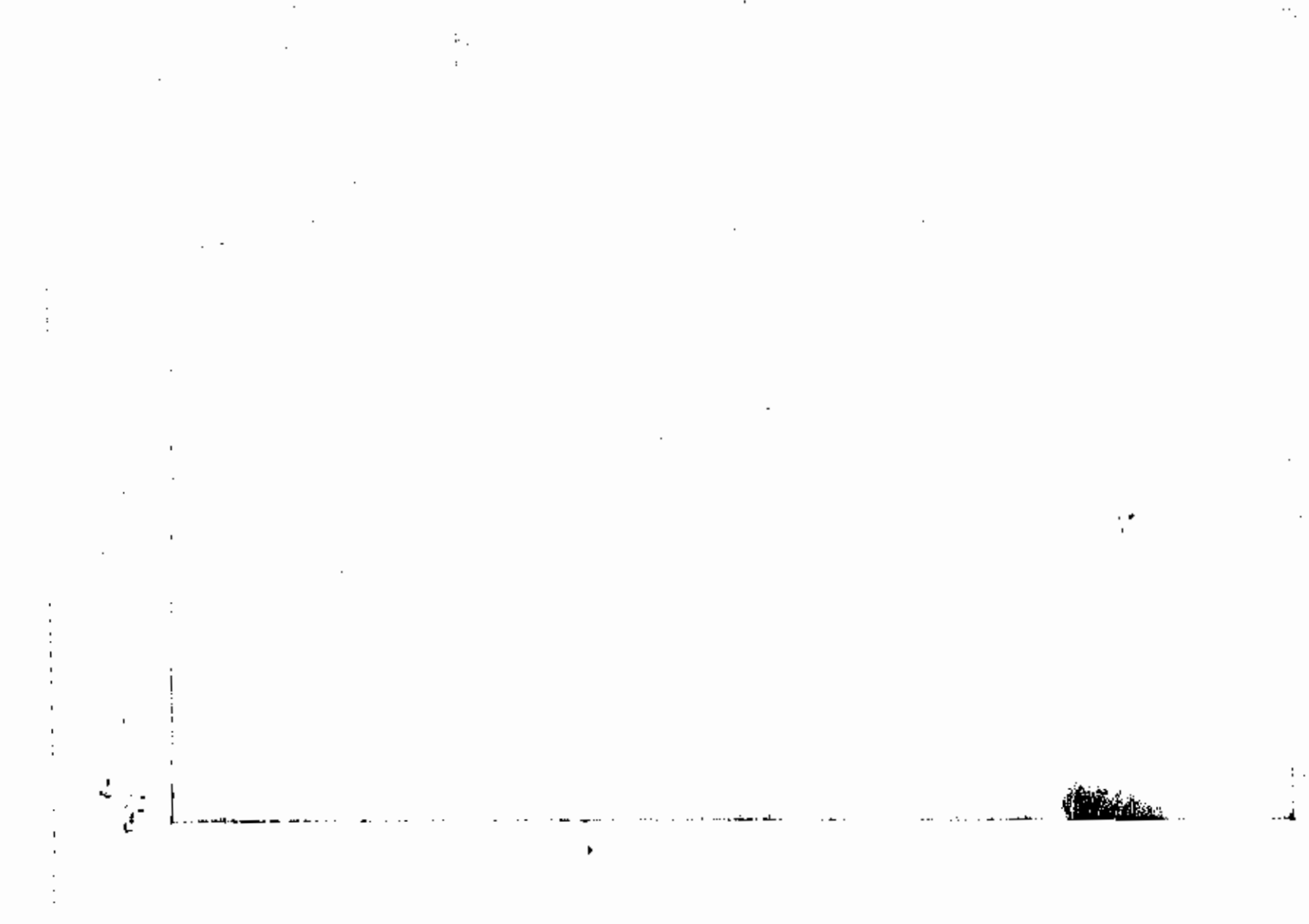

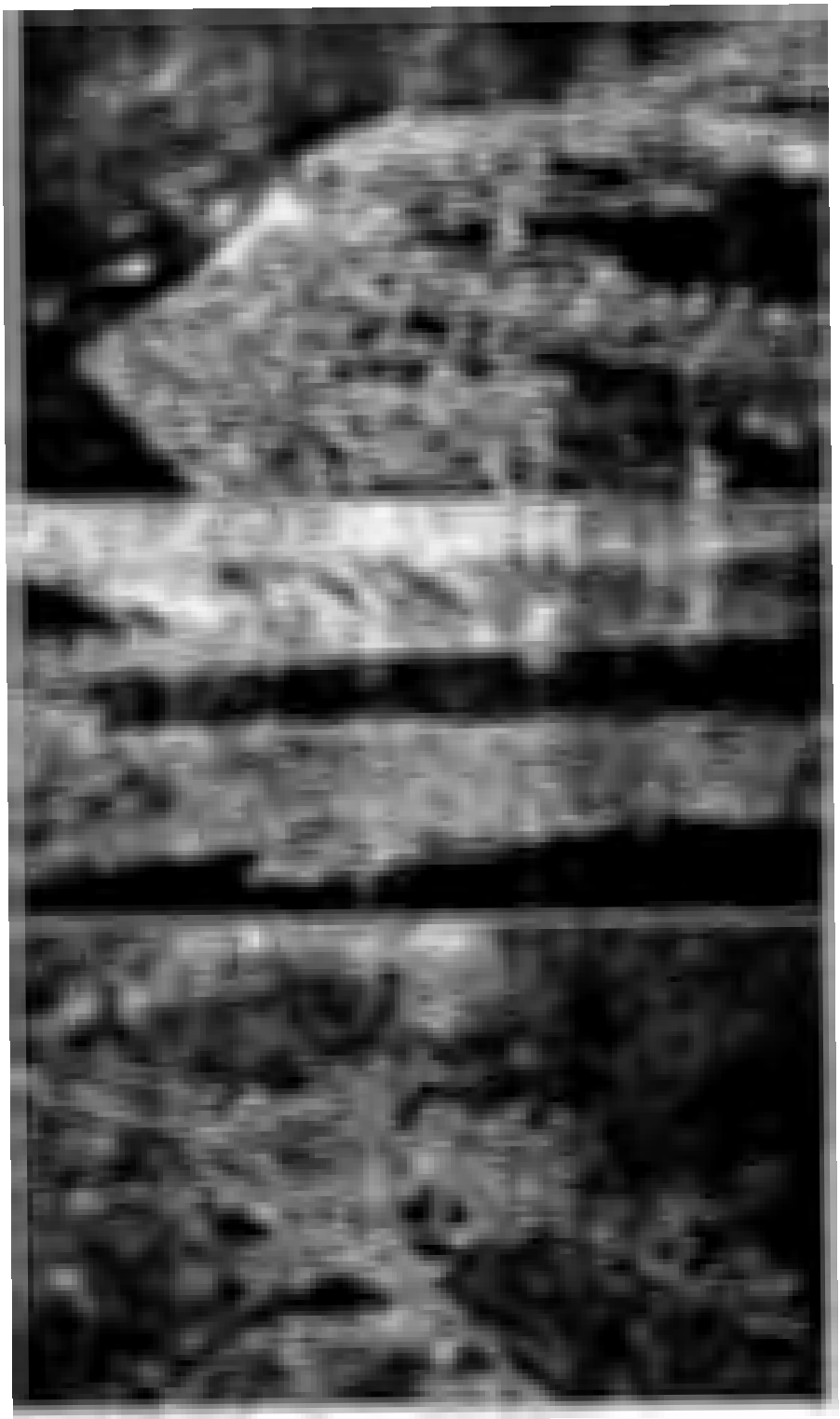

ثلاث مدن سورية كما يُرى من طيارة محلقة (من أعلى الى أسفل) مرتفعة عن دمشق الشام فنابلس

مقتطف يوليو ١٩٢٩ أنظر الصفحة ١٦١